غزوة المريسيع أو (بني المُصطَلِق)

لما بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له ـ يجتمعون ـ ويقودهم الحارث بن أبي ضرار، استعمل على المدينة «أبا ذر الغفاري» ويقال: «نُمَيْلَةُ بن عبد الله الليثي» ثم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم، يقال له: (المُرَيْسيعُ)، من ناحية «قُدَيْد» إلى الساحل، فَتزاحف الناس، واقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم الله بني المصطلق، وقُتِلَ من قُتِلَ منهم، ونَفَّل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فأفاءهم عليه. وقد أُصيب ـ يومئذٍ ـ رجل من المسلمين يقال له: «هشام بن صبابة» من بني كلب بن عوف بن عامر بن ليث بن بكر، أصابه رجل أنصاري من رهط «عبادة بن الصامت» وهو يظن أنه من العدو، فقتله خطأ.

وفيما كان رسول الله ﷺ على ذلك الماء، أقبل الناس وكان مع «عمر بن الخطاب» غلام له من «غفار» يدعى «جهجاه بن مسعود» يقود فرسه، فازدحم «جهجاه» و«سنان بن وَبَر» الجهني، حليف بني عَوْف بن الخزرج، على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار!، وصرخ «جهجاه»: يا معشر المهاجرين! فغضب «عبد الله بن أبي ابن سلول» وعنده رهط من قومه، فيهم «زيد بن أرقم» غلام حديث السن، فقال: أو قد فعلوها! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله! ما عدونا وجلابيب قريش إلا كما قال القائل: «سَمِّنْ كلبك يأكلْك!»، أما والله! لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله! لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير بلادكم.

وحين سمع «زيد بن أرقم» مقالة «ابن أبي» مشى إلى رسول الله ﷺ عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره بها، فقال «عمر بن الخطاب» مُرْ به «عبَّاد بن بشر» فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: (فكيف، يا عمر! إذا تحدث الناس أن «محمداً» يقتل أصحابه؟، لا، ولكن أذِّن بالرحيل)، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

ولما أخبر «عبد الله بن أبي ابن سلول» أن «زيد بن أرقم» بلَّغ رسول الله ﷺ بمقالته، أتى النبي ﷺ فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به، ـ وكان في قومه شريفاً عظيماً ـ فقال من حضر رسول الله ﷺ من أصحابه من الأنصار: يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، حدباً على «عبد الله بن أبيٍّ» ودفعاً عنه.

وأثناء مسير رسول الله ﷺ، لقيه «أُسَيْد بن حُضَيْرٍ» فحيَّاه بتحيَّة النبوة، وسلَّم عليه، ثم قال: يا نبي الله! والله! لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: (أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟) قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: (عبد الله بن أبيٍّ)، قال: وما قال؟ قال: (زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجَنَّ الأعز منها الأذلَّ)، قال: فأنت يا رسول الله! والله! تخرجه منها إن شئت، هو والله! الذليل، وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله! ارفُقْ به، فوالله! لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخَرَزَ ليتوِّجوه، فإنه يرى أنك قد استلبته ملكاً.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، حتى إذا وجدوا مَسَّ الأرض وقعوا نياماً، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس، عما كان من حديث «عبد الله بن أبيٍّ» بالأمس.

ثم سلك رسول الله ﷺ بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فَوَيْق النَّقيع، يقال له: (بقعاء)، ولم تلبث أن هبت على الناس ريح شديدة آذتهم، وتخوفوها فقال لهم رسول الله ﷺ: (لا تخافوها، فإنما هبَّت لموت عظيم

من عظماء الكفار)، فلما بلغوا المدينة، وجدوا أن «رِفاعة بن زيد بن التابوت»، من بني قينقاع، وكان عظيماً من عظماء يهود، وكهفاً للمنافقين، مات في ذلك اليوم. وأنزل الله تعالى في «عبد الله بن أُبيٍّ» ومن كان على شاكلته من النفاق سورة المنافقين، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن «زيد بن أرقم» ثم قال: (هذا الذي أوفى الله بأذنه).

وقد روى أبو إسحاق، عن زيد بن أرقم، قال: خرجت مع عمي في غزاة، فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول لأصحابه: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ والله! ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٧ ـ ٨]، فذكرت ذلك لعمي، فذكره عمي لرسول الله ﷺ، فأرسل إليَّ، فحدثته، فأرسل إلى «عبد الله» وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، قال: فكذَّبني رسول الله ﷺ وصدَّقه، فأصابني هَمٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومَقتك! قال: حتى أنزل الله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ قال: فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأها، ثم قال: (إن الله صَدَّقَكَ يا زيد!).

ولما بلغ «عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول» ما كان من أمر أبيه سيءَ بذلك لأنه كان من المؤمنين الصادقين، فأتى النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنه قد بلغني أنك تريد قتل «عبد الله بن أبيٍّ» ـ فيما بلغك عنه ـ فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله! لقد علمت الخزرج، ما كان بها رجل أبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعُني نفسي أن أنظر إلى قاتل «عبد الله بن أبي» يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر. فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: (بل نرفُق به ونحسن صحبته ما بقي معنا)، وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنفونه، ويتوعدونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك عنهم من شأنهم: (كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله لأُرْعِدَتْ له آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلَتْه)، فقال عمر: قد والله! علمتُ لأَمْرُ رسول الله أعظمُ بركة من أمري.

وخرج من مكة «مِقْيَس بن صُبَابة» إلى المدينة مسلماً في ظاهر أمره، فلما أُدخل على رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله! جئتك مسلماً وأسألك دَيَة أخي الذي قتل خطأ، فأمر رسول الله ﷺ بإعطائه دَيَةَ أخيه ـ هشام بن صُبَابة ـ فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتدّاً وراح يقول:

شفى النفسُ أن قد بات بالقاع مُسْنَداً ... تُضرِّجُ ثوبيه دماء الأخادعِ[1]
وكانت همومُ النفس من قبل قتله ... تُلِمّ فتحميني وطاء المضاجعِ
حللتُ به وِتْري وأدركتُ ثُؤْرتي ... وكنت إلى الأوثان أولَ راجع
ثأرتُ به فِهْراً وحَمَّلتُ عَقْلَهُ[2] ... سَرَاة[3] بني النجار أرباب فارع[4]

وقال مِقْيَسُ بن صُبابة أيضاً:

جَلَّلتُه[5] ضربةً باءت[6] له وَشَلٌ[7] ... من ناقع الجوف يعلوه وينصرمُ
فقلتُ والموتُ تغشاه أسِرَّتُهُ[8] ... لا تأمَنَنَّ بني بكر إذا ظُلِمُوا

وقال ابن هشام: وكان شعار المسلمين يوم بني المصطلق: يا منصور! أَمِتْ أمِتْ. وتكبَّد بنو المصطلق يومئذٍ العديد من القتلى، وقتل «عليُّ بن أبي طالب» منهم رجلين، مالكاً وابنه، وقتل «عبد الرحمٰن بن عوف» فارساً منهم يقال له: «أحمر» أو «أُحَيْمر».

وحدث محمد بن إسحاق[9]، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة، [عن عائشة زوج النبي ﷺ، قالت: لمَّا قَسَمَ رسولُ الله ﷺ سبايا بني

(١) الأخادع: عروق القفا، وهما أخدعان.
(٢) العَقْل: الدِّيَةُ.
(٣) السَّرَاةُ: خيار القوم.
(٤) فارع: حصن لهم.
(٥) جلَّلته: علوته.
(٦) باءت: أخذت بالثأر.
(٧) الوَشَلُ: القطر.
(٨) الأسِرَّة: التكسر في جلد الوجه والجبهة.
(٩) تاريخ الطبري: (٢/ ٦١٠).

المصطلق وقعت «جويرية بنت الحارث» في السهم لثابت بن قيس بن الشماس ـ أو لابن عم له ـ فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حُلْوَةً مُلاَّحَةً[١]، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه على كتابتها، قالت: فوالله! ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي كرهتها، وعرفت أنه سيرى منها مثلَ ما رأيت، فدخلتْ عليه، فقالت: يا رسول الله! أنا «جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار» سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشماس ـ أو لابن عم له ـ فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، فقال لها: (فهل لك في خير من ذلك؟) قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: (أقضي كتابتك وأتزوجك)، قالت: نعم، يا رسول الله! قال: (قد فعلت)، قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج «جويرية بنت الحارث»، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بأيديهم.

قالت: فلقد أعْتِق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها؟[٢].

قال ابن هشام[٣]: ويقال: لما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق، ومعه «جويرية بنت الحارث» وكان بذات الجيش، دفع «جويرية» إلى رجل من الأنصار وديعة، وأمره بالاحتفاظ بها، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأقبل أبوها «الحارث بن أبي ضرار» بفداء ابنته، فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء، فرغب في بعيرين منها، فغيَّبهما في شعْبٍ

---

(١) المُلاَّحة: الشديدة الملاحة والحسن.

(٢) قال السهيلي: (وأما نظره ﷺ لجويرية حتى عرف من حسنها ما عرف، فإنما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة، ولو كانت حرة ما ملأ عينه منها، لأنه لا يُكرَه النظر إلى الإماء، وجائز أن يكون نظر إليها لأنه أراد نكاحها، كما نظر إلى المرأة التي قالت: إني قد وهبت نفسي لك يا رسول الله! فصعَّد فيها النظر ثم صَوَّب، ثم أنكحها من غيره، وقد ثبت عنه ﷺ الرخصة في النظر إلى المرأة عند إرادة نكاحها).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/٣٢٣).

من شعاب العقيق، ثم أتى إلى النبي ﷺ، وقال: يا «محمد»! أصبتُمْ ابنتي، وهذا فداؤها، فقال رسول الله ﷺ: (فأين البعيران اللذان غَيَّبتهما بالعقيق، في شعب كذا وكذا؟) فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمد رسول الله، فوالله! ما اطلع على ذلك إلا الله! فأسلم «الحارث»، وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما، فدفع الإبل إلى النبي ﷺ، ودفعت إليه ابنته «جويرية» فأسلمت، وحسن إسلامها، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها، فزوجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وبعد إسلام «الحارث بن أبي ضرار» أعلمه النبي ﷺ أن الله افترض على أغنياء المسلمين زكاة ينبغي لكل من وَجَبَتْ عليه إخراجها في كل عام.

وقد ذكر العلامة الآلوسي في تفسيره الفخيم (روح المعاني) حديث «الحارث» فقال[1]: [أخرج أحمد، وابن أبي الدنيا، والطبراني، وابن منده، وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي، قال: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه، وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة، فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله! أرجع إلى قومي، فأدعوهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، وترسل إليَّ يا رسول الله رسولاً لإبَّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة.

فلما جمع «الحارث» الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبَّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس الرسول، فلم يأت، فظن «الحارث» أن قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، فدعا سَرَوات قومه فقال لهم: رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان وَقَّت لي وقتاً يرسل إليَّ رسوله ليقبض ما كان عندنا من الزكاة، وليس من رسول الله عليه الصلاة والسلام الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة، فانطلِقُوا بنا نأتي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وبعث رسول الله ﷺ «الوليد بن عقبة بن أبي معيط» وهو أخو «عثمان» رضي الله تعالى عنه لأمه -

(١) روح المعاني: (ج ٢٦/ص ١٤٤).

إلى «الحارث» ليقبض ما كان عنده، مما جمع من الزكاة، فلما أن سار «الوليد» إلى أن بلغ بعض الطريق فَرَقَ ـ خاف ـ فرجع، فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: إن «الحارث» منعني الزكاة، وأراد قتلي، فضرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البعث إلى «الحارث» فأقبل «الحارث» بأصحابه، حتى إذا استقبله «الحارث» وقد فصل عن المدينة، قالوا: هذا «الحارث»، فلما غشيهم، قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله، قال: لا، والذي بعث «محمداً» بالحق! ما رأيته بَتَّةً، ولا أتاني، فلما دخل «الحارث» على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: (منعت الزكاة، وأردت قتل رسولي؟) قال: لا، والذي بعثك بالحق! ما رأيته ولا رآني، ولا أقبلت إلاّ حين احتبس عليَّ رسولُ رسولِ الله صلى الله تعالى عليه وسلم، خشية أن يكون سخطة من الله تعالى، ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وكانت المرأة المطهرة «عائشة» رضي الله عنها قد خرج سهمها حين أقرع رسول الله ﷺ بين نسائه قبل أن ينطلق إلى بني المصطلق غازياً، ولما قفلوا راجعين أضلَّت رضي الله عنها عقداً لها، فلما ذهبت تلتمسه، اختلق المنافقون قصة الإفك العظيم، والافتراء الأثيم، ولكن الله تعالى الذي يدافع عن المُؤمنين، بَرَّأها من إفكهم، وطَهَّرها من افترائهم، ونصرها، وانتصر لها، وكيف لا؟ وهو القائل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، والقائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، وهاهي ذي أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق تروي لنا ما حدث لها في ذلك اليوم العَصِيب!

وقد أخرج البخاري في صحيحه[1] حديث أم المؤمنين في تفسير سورة

(١) صحيح البخاري رقم (٤٤٧٣).

النور، قال: [حدثنا يحيى بن بُكَيْر، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيَّب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرَّأها الله مما قالوا، وكلٌّ حدثني طائفةً من الحديث، وبعض حديثهم يصدِّق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، الذي حدثني عروة، عن عائشة رضي الله عنها: أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيَّتُهُنَّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب، فأنا أُحْمَلُ في هودجي، وأُنزلُ فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَلَ، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلةً بالرحيل، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيت شأني أقبلتُ إلى رحلي، فإذا عقد لي من جَزْعِ ظَفَار قد انقطع، فالتمستُ عِقدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهطُ الذين كانوا يَرْحَلُون لي، فاحتملوا هودجي، فَرَحَلُوه على بعيري الذي كنتُ ركبتُ وهم يحسِبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ، إنما تأكل العُلْقَةَ من الطعام، فلم يستنكر القومُ خِفَّةَ الهودج حين رَفعوهُ، وكنت جارية حديثة السِّنِّ، فبعثوا الجملَ وساروا، فوجدتُ عِقدي بعدما استمر الجيشُ، فجئتُ منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيبٌ، فأقمْتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فَبَيْنا أنا جالسةٌ في منزلي غَلَبَتْني عيني فنمتُ، وكان صفوانُ بن المُعَطَّل السُّلَمِيُّ ثم الذكوانيُّ من وراء الجيش، فأَدلَجَ، فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، والله! ما كلمني كلمةٌ، ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعه، حتى أناخ راحلته فَوَطِىءَ على يديها فركبتُها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيشَ بعدما نزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة، فَهَلَكَ مَنْ

هَلَكَ. وكان الذي تولَّى الإفك «عبد الله بن أبيٍّ ابن سَلُول»، فقدمنا المدينة، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهراً، والناسُ يُفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيءٍ من ذلك، وهو يُريبني في وجعي أني لا أعرفُ من رسول الله ﷺ اللُّطْف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيُسَلِّم ثم يقول: (كيف تيكُمْ؟) ثم ينصرف. فذاك الذي يريبني ولا أشعر، حتى خرجتُ بعدما نَقَهْتُ، فخرجتْ معي «أم مِسْطح» قبلَ المناصع، وهو مُتَبَرَّزُنَا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نَتَّخِذَ الكُنُفَ قريباً من بيوتنا، فانطلقتُ أنا و«أمُّ مِسْطَح»، وهي ابنة أبي رُهْمْ بن عبد منافٍ، وأمها بنت صخرِ بن عامرٍ خالة «أبي بكر الصديق»، وابنها «مِسْطَح بن أُثاثَة»، فأقبلْتُ أنا و«أمُّ مِسْطَح» قِبَلَ بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرت «أُمُّ مِسْطَح» في مِرْطها، فقالت: تَعِسَ «مِسْطَحٌ» فقلت لها: بئس ما قلتُ، أَتَسُبِّينَ رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أيْ هَنْتاهُ، أوَ لَمْ تسمعي ما قال؟ قالت: قلتُ، وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ يعني سلَّم ثم قال: (كيف تيكُمْ؟) فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريدُ أن استيقن الخبرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فجئتُ أبويَّ فقلت لأمي: يا أمتاهُ! ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية! هَوِّني عليك، فوالله! لَقَلَّما كانتِ امرأةٌ قَطُّ وضيئةً، عند رجل يحبها، ولها ضرائِرُ إلاَّ كثَّرْنَ عليها، قالت: فقلت: سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنوم حتى أصبحتُ أبكي، فدعا رسولُ الله ﷺ «عليَّ بن أبي طالب» و«أسامةَ بن زيد» حين استلبث الوحيُ، يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأما «أسامة بن زيد» فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله! أهلك، وما نعلم إلاَّ خيراً، وأمَّا «عليُّ بن أبي طالب» فقال: يا رسول الله! لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثيرٌ، وإن تسأل الجارية تصدُقكَ.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقالَ: (أيْ بَريرة! هل رأيت من شيء يَرِيبُك؟) قالت: لا والذي بعثك بالحق! إن رأيتُ عليها أمراً أغمصه عليها أكثرَ من أنها جارية حديثة السِّنِّ، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجنُ فتأكُلُهُ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذٍ من «عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول» فقالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: (يا معشر المسلمين! من يَعْذِرُني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله! ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي). فقام «سعد بن معاذ الأنصاري» فقال: يا رسولَ الله! أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام «سعد بن عبادة» وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحميَّةُ، فقال لسعد: كذبتَ لَعَمْرُ الله! لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام «أُسَيْدُ بن حُضَيْر» وهو ابن عم «سَعْدٍ»، فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ لَعَمْرُ الله لَنَقْتُلنَّه، فإنك منافقٌ تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هَمُّوا أن يقتتلوا، ورسولُ الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضهُم حتى سكتوا وسكت، قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنومٍ، قالت: فأصبح أبواي عندي، وقد بكيتُ ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنومٍ، ولا يرقأ لي دمع، يظنان أنَّ البكاء فالق كبدي

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي معي.

قالت: فبينما نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ فسلَّم، ثم جَلَس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني، قالت: فَتَشَّهد رسول الله ﷺ حين جَلَسَ، ثم قال: (أما بعد، يا عائشة! فإنه قد بلغني عنكِ كذا وكذا، فإن كنتِ بريئةً فسيبرِّئُكَ اللَّهُ، وإن كنتِ أَلْمَمْتِ بذنبٍ فاستغفري الله وتُوبي إليه، فإن العبدَ إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه).

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعي، حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً، فقلت لأبي: أجبْ رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلتُ، وأنا جاريةٌ حديثة السِّنِّ لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله! لقد علمتُ: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استَقَرَّ في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلتُ لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفتُ لكم بأمرٍ، والله يعلم أني منه بريئة لَتُصَدِّقُنِّي، والله! ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قالت: ثم تحوَّلتُ فاضطجعتُ على فراشي، قالت: وأنا حينئذٍ أعلم أني بريئة، وأنَّ الله مبرئي ببراءتي، ولكن، والله! ما كنت أظن أن الله مُنْزِلٌ في شأني وحياً يُتْلى، ولشأني في نفسي كان أَحْقَرَ من أن يتكلَّم الله فيَّ بأمرٍ يُتْلى، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قالت: فوالله! ما رام رسول الله ﷺ، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتَّى أُنْزِلَ عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء، حتى إنه ليتحدَّر منه مثلُ الجُمَانِ من العَرَقِ، وهو في يومٍ شاتٍ، من ثِقَل القول الذي يُنْزِلُ عليه.

قالت: فلمَّا سُرِّي عن رسول الله ﷺ سُرِّي عنه وهو يضحك، فكانت أولُ كلمةٍ تكلَّم بها: (يا عائشة! أمَّا الله ﷻ فقد بَرَّأكِ)، فقالت أمي: قُومي إليه، قالت: فقلت: والله! لا أقومُ إليه، ولا أَحْمَدُ إلا الله ﷻ، وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ﴾ العشر الآيات كُلَّها، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه وكان يُنْفِقُ على «مِسْطَح بن أُثاثَةَ» لقرابته منه وفقره: والله! لا أُنْفِقُ على «مِسْطَحٍ» شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، قال أبو بكر: بلى، والله! إني أحب أن

يغفر الله لي، فرجَعَ إلى «مِسْطَحٍ» النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله! لا أنْزِعُها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل «زينب ابْنَةَ جحش» عن أمري، فقال: (يا زينبُ! ماذا علمت، أو رأيتِ؟) فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً.

قالت: وهي التي كانت تُساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها «حَمْنَةُ» تُحاربُ لها، فهلكت فيمن هلكَ من أصحاب الإفك].

وأخرج البخاري أيضاً عن مسروق، عن أم رومان أم عائشة أنها قالت: (لما رُمِيَتْ عائشة خَرَّتْ مَغْشِيًّا عليها). رقم (٤٤٧٤).

وروى محمد بن إسحاق، عن أبيه، عن بعض رجال بني النجار، (أنَّ «أبا أيوب خالد بن زيد» قالت له امرأته «أم أيوب»: يا أبا أيوب! أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى؛ وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب! فاعلةً ذلك؟ قالت: لا، والله! ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله! خير منك).

وقد أمر رسول الله ﷺ بمسطح بن أُثَاثَةَ، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش ـ وكانوا ممن خاضوا في حديث الإفْك ـ فَضُرِبُوا حدهم.

وجاء في قصيدة مطولة تحدثت فيها عن مناقب أم المؤمنين هذه الأبيات[1]:

يـا أُمَّـتـا أنـت الـنـقـاء بـعـيـنـه ... ونـقـاء ذيـلـك لـيـس فـيـه مِـرَاءُ
ومَنِ ابتغَيْن من الطهارة صَفْوَها ... فـبـغـيـر نـبـعـك لا يُـرام صـفـاءُ
لا تـحـسـبـي الإفْكَ الـذي جاءوا به ... شَـرًّا، وفـي كـل الـشـرور بـلاءُ
لـلـمـؤمـنـيـن، وغُـمَّـةٌ لـو أنـهـم ... صـبـروا لـزالـت عـنـهـم الـغَـمَّـاءُ

(١) الأبيات من قصيدة للشاعر «محمد راجي حسن كناس» مهداة لأم المؤمنين.

بل كان خيراً وَفْقَ ما نَزَلَتْ به ... من فضل ربِّك آية غَرَّاءُ
رَسَخَتْ بأسماع الزمان وَوَكَّدت ... أنَّ ابنةَ الصدِّيق منه بَرَاءُ
معصومةٌ ليست تُزَنُّ بريبةٍ ... وعلى الحصانة أُشْهِدَ الأُمَناءُ
وأصاب كَيْدُ المُرْجَفين نُحُورَهُمْ ... وانتابهم مِمَّا جَنَوْه شقاءُ
أما الذي منهم تولَّى كِبْرَهُ ... فله عذابٌ ليس منه وِقَاءُ
وعَنِ المُبَرَّأةِ انجلى ما ساءها ... مِنْ إفْكِهِمْ وانْجَابَتِ البُرَحاءُ
فالحمدُ ثم الحمدُ لله الذي ... بعظيم مَنّه تُكشَفُ الأَسْواءُ
ما أَنْزَلَ الرحمٰنُ من عليائه ... نفياً لما قد أرجف السفهاءُ
إلاَّ لأنك للحرائر أُسوَةٌ ... ما أنجبت نِدًّا لها حَوَّاءُ
وكفى بربك شاهداً ومُبَرِّئاً ... يا أُمَّتاهُ إذا انتفى الشهداءُ
ومن الوفاء بيانُ فَضْلك أُمّنا ... لا خيرَ فيمن ليس فيه وفاءُ
ما قلت ذلك راغباً في مِدْحَةٍ ... فَلِشَأوِ مثلك ما ارتقى الشعراءُ
لكنه حَقٌّ أردت قضاءَهُ ... لأَبَرِّ أمٍّ والحقوق مَضاءُ

وفي سيرة ابن هشام[1] أن حسان بن ثابت قال يعتذر عما ذكر به «عائشة» رضي الله عنها:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافلِ
حليلةُ خير الناس دِيناً ومَنْصِباً ... نبيِّ الهدى والمكرمات الفواضلِ
عَقيلةُ حيٍّ من لؤي بن غالبٍ ... كرام المَسَاعي مجدها غيرُ زائلِ
مهذَّبةٌ قد طيَّب الله خِيمَها ... وطهَّرها من كل سُوءٍ وباطلِ
فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زعمتُمُ ... فلا رَفَعَتْ سوطي إلي أناملي
وإن الذي قد قيل ليس بلائطٍ ... بها الدهر بل قولُ امرىء بي ما حلِ
فكيف وودي ما حييتُ ونصرتي ... لآل نبيِّ الله زَيْن المحافلِ
له رَتَبٌ عالٍ على الناس كلهمْ ... تقاصَرُ عنه سَوْرةُ المُتَطاولِ
رأيتُكِ ولْيَغْفِر لكِ الله حُرَّةً ... من المحصناتِ غيرَ ذاتِ غَوائلِ

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٣٤)، والبيتان الثاني والأخير من الديوان ولم يذكرهما ابن هشام في سيرته.

وحين سمعتْ قوله:

حَصَانٌ رزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتصبح غرثى من لحوم الغوافلِ

قالت عائشة: لكنك يا حسان! ما تصبح غرثان من لحومهن.

وقال ابن هشام[١]: وحدثني أبو عبيدة: أن امرأة مدحت بنت «حسان بن ثابت» عند عائشة، فقالت:

حَصَانٌ رزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتصبح غرثى من لحوم الغوافلِ

فقالت عائشة: لكن أبوها.

قال أبو ذر: يروى: أبوها وأباها، فمن قال: (أبوها) فمعناه: لكن أبوها لم يكن كذلك، ومن قال: (أباها) فإنه يعني: أن حسان أبى هذه الفضيلة.

وبعد أن ضُرِبَ المفترون على أم المؤمنين ـ عائشة ـ رضي الله عنها حدهم، قال قائل من المسلمين في ذلك[٢]:

لقد ذاق حسانُ الذي كان أهلَه وحمنةُ إذ قالوا هجيراً[٣] ومِسْطَحُ
تعاطوا برجم الغيب زوج نَبيِّهم وسخطة ذي العرش الكريم فأُتْرحوا[٤]
وآذَوْا رسول الله منها فَجُلِّلوا مخازِيَ تبقى عُمِّموها وفُضِّحوا
وصُبَّت عليهم مُحْصَداتٌ[٥] كأنَّها شآبيب قطرٍ من ذُرَى المُزنِ[٦] تَسْفَح[٧]

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٣٥).
(٢) الأبيات في سيرة ابن هشام (٣/٣٣٦).
(٣) الهجير: قول الفاحش القبيح.
(٤) أُتْرِحوا: أحزنوا، من الترح.
(٥) مَحْصدات: سياط محكمة الفتل شديدات.
(٦) المُزن: السحاب.
(٧) تَسْفَح: تَسِيل.

أمر الحديبية وبيعة الرضوان

وأقام رسول الله ﷺ في المدينة شهري رمضان وشوالاً، ثم خرج في ذي القَعْدة سنة ست، يريد العمرة، ولا يريد القتال، وخَلَّفَ على المدينة «نُمَيْلة بن عبد الله الليثيَّ».

وكان ﷺ قد استنفر العرب، ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، مخافة أن تعرض له قريش بحرب، أو تمنعه زيارة البيت، لكن الأعراب أصمُّوا آذانهم عن استنفاره، إلاَّ قليلاً منهم، فخرج بهم ومعه المهاجرون والأنصار، وساق الهَدْيَ، وأحرم بالعمرة، ليشعر الناس بالأمن من حربه، ويعلموا أنه ليس في نيته القتال، وأن غايته زيارة البيت وتعظيمه.

وأخرج ابن جرير الطبري[1] حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن مسلم الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه، قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية، يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه سبعين بَدَنَة، وكان الناس سبعمائة رجل، كانت كل بَدَنَةٍ عن عشرة نفر.

وكان «جابر بن عبد الله» فيما بلغني، يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة.

وجاء في حديث الزهري: فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بعُسْفان، لقيه «بِشْرُ بن سفيان الكعبيُّ» فقال له: يا رسول الله! هذه قريش قد

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٦٢٠).

سمعوا بسيرك، فخرجوا معهم العُوذُ المطافيل[١] قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طُوى، يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا «خالد بن الوليد» في خيلهم، قد قدَّموها إلى (كُرَاعِ الغَمِيم).

قال ابن إسحاق: فقال رسول الله ﷺ: (يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خَلَّوْا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله! لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة)[٢].

ثم قال: (من رجلٌ يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم التي هم بها؟). قال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، أن رجلاً من أسلم قال: أنا، يا رسول الله! قال: فسلك بهم على طريق وعرٍ حزن بين شعاب، فلما أن خرجوا منه ـ وقد شَقَّ ذلك على المسلمين، وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي ـ قال رسول الله ﷺ للناس: (قولوا: نستغفر الله، ونتوب إليه) ففعلوا، فقال رسول الله ﷺ: (والله! إنها لَلْحِطَّةُ التي عرضت على بني إسرائيل، فلم يقولوها).

قال ابن شهاب: ثم أمر رسول الله ﷺ الناس فقال: (اسلكوا ذات اليمين، بين ظَهْرَي الحَمْضِ في طريق تخرجه على ثنية المُرَار على مهبِط الحديبية من أسفل مكة، قال: فسلك الجيشُ ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش، وأنَّ رسول الله ﷺ قد خالفهم عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك في ثنيَّة المُرَار، بَرَكَتْ ناقته، فقال الناس: خَلأَت[٣]! فقال: (مَا خَلأَت، وما هو لها

---

(١) العُوذُ المطافيل: العُوذ: الإبل حديثة النتاج، مفردها عائذ، والمطافيل التي معها أولادها، يقصد أنهم خرجوا ومعهم النساء والولدان.

(٢) السالفة: صفحة العنق، وهما اثنتان، وكنى بانفرادها عن الموت.

(٣) خلأت: بركت وحَرَنَتْ.

بخُلُق، ولكن حبَسَها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطَّةٍ، يسألوني صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها). ثم قال للناس: انزلوا، فقيل: يا رسول الله! ما بالوادي ماء ننزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القُلُب فغرزه في جوفه، فجاش[١] الماء بالري، حتى ضرب الناس عليه بعَطَنٍ[٢].

واختلف في الذي نزل في القليب بسهم رسول الله ﷺ، فعند ابن إسحاق: «ناجية بن جُنْدَب بن عمير» سائق بُدْن رسول الله ﷺ.

وفي رواية ثانية عنه قال: وقد زعم لي بعض أهل العلم: أن «البراء بن عازب» كان يقول: أنا الذي نزلت بسهم رسول الله ﷺ، فالله أعلم أي ذلك كان. قال: وأنشدت أسلم أبياتاً من شعر قالها «ناجية»، قد ظننا أنه هو الذي نزل بسهم رسول الله ﷺ، فزعمت أسلم أن جارية من الأنصار أقبلت بدلوها، و«ناجية» في القليب يميح على الناس، فقالت:

يا أيها المائح دلوي دُونَكا إني رأيت الناسَ يحمدونكا
يُثْنُون خيراً ويُمَجِّدونكا

قال ابن هشام: ويروى: إني رأيت الناس يمدحونكا

قال ابن إسحاق: فقال «ناجية» وهو في القليب يميح على الناس:

قد علمت جارية يَمَانِيَهْ أني أنا المائح[٣] واسمي ناجيَهْ
وطَعْنَةٍ ذاتِ رشاش واهيَهْ طعنتها تحت[٤] صدور العاديَهْ

فلمَّا اطمأنَّ رسول الله ﷺ أتاه «بُدَيْلُ بنُ ورقاء الخُزاعي» في نفر من قومه، وكانت خُزاعة موضع نصح رسول الله ﷺ، مسلمها ومشركها،

---

(١) جاش: ارتفع.
(٢) ضربت الإبل بعطن: إذا رويت ثم بركت حول الماء أو الحياض لتعود للشرب مرة أخرى. ثم استُعِيرَ لاتساع الناس.
(٣) يميح: يملأ الدلاء ليسقي الناس.
(٤) تحت: في الطبري، عند: في سيرة ابن هشام.

وكلموه وسألوه عما جاء به، فأخبرهم أنه لم يأت لحرب، ولكن جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمته، فلما أبلغوا قريشاً بذلك، سمعوا منهم ما يكرهون، ثم قالوا: وإن كان لا يريد القتال، فلا يدخلها علينا عَنْوَة، ولا تتحدث عنَّا العرب بذلك.

ثم جاءه «مِكْرَز بن حفص» فأخبره رسول الله ﷺ بنحو ما قاله لبديل وأصحابه، فعاد إليهم بما سمع من رسول الله ﷺ، فقام «عروة بن مسعود الثقفي»، فقال: أيْ قوم! ألستُمْ بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: ألستُ بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: إن هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته، فقالوا: ائته، فأتاه.

وجعل «عروة» يكلم النبي ﷺ، فكلما كلمه أخذ بلحيته، و«المغيرة بن شعبة» قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى «عروة» بيده إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخِّرْ يدك عن لحيته، فرفع «عروة» رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: «المغيرة بن شعبة» قال: أيْ غُدَرُ! ألست أسعى في غَدْرتك؟ وكان المغيرة بن شعبة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: (أما الإسلام فقد قبلنا، وأما المال فإنه مال غَدْر، لا حاجة لنا فيه). وجعل «عروة» يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، قال: فوالله! إنْ يتنخَّم النبي ﷺ ـ إن: بمعنى: ما ـ نُخَامةً إلا وقعت في كف رجل منهم، فَدَلَكَ بها وجهه وجلده، إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم، وما يُحِدُّون النظر إليه تعظيماً له.

فرجَّع «عروة» أصحابه، فقال: أيْ قوم! والله! لقد وفدت على الملوك ووفدت على «كسرى» و«قيصر» و«النجاشي»، والله! إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب «محمد» محمداً. والله! إن يتنخَّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فَدَلَك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم، وما يُحِدُّونَ النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة

رَشَدٍ فاقبلوها. فقال رجل من كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال النبي ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظِّمون البُدْن، فابعثوها له، فَبُعِثَتْ له، واستقبله قوم يُلَبُّون، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدُّوا عن البيت.

قال الزهري: ثم بعثوا إليه «الحُلَيْسَ بن عَلْقَمة» ـ أو ابنَ زَبَّان ـ وكان يومئذٍ سيد الأحابيش ـ وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ـ فلما رآه النبي ﷺ قال: (إنَّ هذا من قوم يتألَّهون[1]، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عُرْض[2] الوادي في قلائده، قد أكل أوباره من طول الحبس، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش! إني قد رأيتُ ما لا يُحِلُّ صَدَّ الهدي في قلائده، قد أكل أوباره من طول الحَبْس عن مَحِلِّه، قالوا له: اجلس، فإنما أنت رجل أعرابي لا علم لك.

وذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر: أن «الحُلَيْسَ» غضب عند ذلك، وقال: يا معشر قريش! والله! ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصَدُّ عن بيت الله مَنْ جاء معظِّماً له؟ والذي نفس «الحُلَيْس» بيده! لَتُخَلُّنَّ بين «محمد» وبين ما جاء له، أو لأَنْفِرَنَّ بالأحابيش نفرة رَجُلٍ واحدٍ، فقالوا له: مَهْ! كُفَّ عنَّا يا حُلَيْسُ حتى نأخذ لأنفسنا ما نَرْضَى به.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم: أن رسول الله ﷺ دعا «خِرَاش بن أمية الخزاعي» فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له يقال له (الثعلب)، ليبَلِّغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلَّوْا سبيله، حتى أتى رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: (وقد حدثني بعض من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس: أن قريشاً كانوا بَعَثُوا أربعين رجلاً أو خمسين

(١) يَتألَّهُون: يتعبدون ويعظمون الإله.
(٢) عُرْض الوادي: جانبه.

رجلاً، وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً، فأُخِذوا أخذاً، فأُتِيَ بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، وخَلَّى سبيلهم، وقد كانوا رَمَوا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل).

ودعا رسول الله ﷺ «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، ليكون سفيره إلى قريش بمكة، فيبلِّغ أشرافها ما جاء له، فقال «عمر»: يا رسول الله! إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عديٍّ بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلُّكَ على رجلٍ أَعَزَّ بها مني، «عثمان بن عفان»، فدعا رسول الله ﷺ «عثمان بن عفان» فبعثه إلى «أبي سفيان» وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت، ومُعَظِّماً لحرمته، وانطلق «عثمان» إلى مكة، فلقيه «أبان بن سعيد بن العاص» فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ، فأتى «عثمان» أبا سفيان وهو في نفر من زعماء قريش، فبلَّغهم ما جاء من أجله، فلما علموا برسالة النبي ﷺ إليهم، قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فَطُفْ، فَرَدَّ بقوله: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. فاحتبسته قريش لديها وأشاعت أنه قد قُتِل.

فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ قال: (لا نبرح حتى نناجز القوم) ثم دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، تحت شجرة سَمُرة، فبايعه الناس، ونزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. ولهذا سميت البيعة تلك (بيعة الرضوان)، وذكر العلامة الآلوسي في تفسيره (روح المعاني)[1] عند تفسير الآية الآنفة، [أن منادي رسول الله ﷺ نادى: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأمره بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله تعالى فبَايِعُوه، فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبَايَعُوه، قال جابر كما في صحيح مسلم وغيره: بايعناه ﷺ على ألاَّ نَفرَّ، ولم نبايعه على الموت،

(١) روح المعاني (ص ١٠٦/ ج ٢٦).

وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تحت الشجرة، قيل: على أي شيء تبايعون يومئذٍ؟ قال: على الموت. وأخرج مسلم عن معقل بن يسار أنه كان آخذاً بأغصان الشجرة عن وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو يبايع الناس، وكان أولُ من بايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يومئذٍ أبا سنان وهو «وَهْب بن مِحْصَن» أخو «عُكَّاشة بن مِحْصَن»، وقيل: «سنان بن أبي سنان» وروى الأول البيهقي في «الدلائل» عن الشعبي، وأنه قال للنبي عليه الصلاة والسلام: ابسط يدك أبايعك، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (علام تبايعني؟) قال: على ما في نفسك. وفي حديث جابر الذي أخرجه مسلم أنه قال: بايعناه عليه الصلاة والسلام، و«عمر» رضي الله تعالى عنه آخذ بيده، ولعل ذلك ليس في مبدإ البيعة، وإلا ففي صحيح البخاري، عن نافع أن «عمر» رضي الله تعالى عنه، يوم الحديبية أرسل ابنه «عبد الله» إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يبايع عند الشجرة، و«عمر» لا يدري بذلك، فبايعه «عبد الله» ثم ذهب إلى الفرس، فجاء به إلى «عمر» و«عمر» رضي الله تعالى عنه يستلئم[1] للقتال، فأخبره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يبايع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وصحَّ أنه ﷺ ضَرَبَ بيده اليمنى على يده الأخرى وقال: (هذه بيعة عثمان)، ولما سمع المشركون بالبيعة خافوا وبعثوا «عثمان» رضي الله تعالى عنه، وجماعة من المسلمين، وكانت عدة المؤمنين ألفاً وأربعمائة على الأصح عند أكثر المحدثين]. انتهى.

وقد بايع رسول الله ﷺ الناس من حضروا جميعاً ما عدا (الجد بن قيس) أخو بني سَلِمَة، فقد اختبأ تحت بطن بعيره، يستتر من الناس، لنفاقه.

ثم أرسلت قريش «سهيل بن عمرو» في نفر إلى رسول الله ﷺ

(١) يستلئم: يلبس لأَمَتَه، واللأْمَةُ: السلاح.

ليصالحوه، فلما رآهم رسول الله ﷺ مقبلين وفيهم «سهيل بن عمرو» قال لأصحابه: (سَهَّل الله لكم من أمركم، القوم ماتُّون إليكم بأرحامكم، وسائلوكم الصلح، فابعثوا الهَدْيَ، وأظهروا التلبية، لعل ذلك يُلَيِّن قلوبهم). فلبَّوْا من نواحي العسكر، حتى ارتجَّت أصواتهم بالتلبية، فجاءوا، فسألوه الصلح. وقالت قريش لسهيل: ائت «محمداً» فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامَه هذا، فوالله! لا تَحَدَّثُ العرب عنا أنه دخلها علينا عَنْوَةً أبداً. وأطال «سهيل» الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح. فلما ٱلتألم الأمر، ولم يبق إلا الكتاب، وثب «عمر بن الخطاب» فأتى «أبا بكر» فقال: يا أبا بكر! أليس برسول الله؟ قال: بلى! قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى! قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قال: فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر! الزم غَرْزَه[1]، فإني أشهد أنه رسول الله، قال «عمر»: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! ألست برسول الله؟ قال: بلى! قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى! قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟ فقال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يُضَيِّعني. فكان «عمر» يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوتُ أن يكون خيراً.

وأمر رسول الله ﷺ «علي بن أبي طالب» بكتابة الصلح، فقال: (اكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم)، فقال «سهيل»: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللَّهم! فقال رسول الله ﷺ: (اكتب باسمك اللهمَّ!) فكتبها، ثم قال: (اكتب هذا ما صالح عليه «محمد» رسول الله «سهيل بن عمرو») فقال «سهيل»: لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ: (اكتب هذا ما صالح عليه «محمد بن عبد الله» سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر

(١) الزم غَرْزَه: الزم أمره، والغرز للرجل كالركاب للسرج.

سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى «محمداً» من قريش بغير إذن وليه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع «محمد» لم يردُّوه عليه، وأن بيننا عَيْبَةً مكفوفة[١]، وأنه لا إسلال[٢]، ولا إغلال[٣]، وأنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم، دخل فيه، فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدها، وأنك ترجع عنَّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، وأن معك سلاح الراكب، السيوف في القُرُب، لا تدخلها بغير هذا.

وبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو و«سهيل بن عمرو» جاء ابن سهيل بن عمرو ويدعى «أبا جندل» إلى رسول الله ﷺ مسلماً، وكان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكُّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما أخذه رسول الله ﷺ على نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلِكون، فلما رأى «سهيل» ابنه «أبا جندل» قام إليه، وضرب وجهه، وأخذ بتلبيبه، ثم قال: يا «محمد» قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: (صدقت)، فجعله يشده ليرده إلى قريش، وكان (أبو جندل) يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أُرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني! فزاد الناس ذلك شَرًّا إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا جندل! احْتَسِبْ، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عقداً وصلحاً، وأعطيناهم على ذلك عهداً، وأعطونا عهداً وإنا لا نغدِر بهم).

فوثب «عمر بن الخطاب» مع (أبي جندل) يمشي معه، ويقول: اصبر

(١) عيبة مكفوفة: أي لا تكون بيننا عداوة.
(٢) لا إسلال: لا سرقة خفية.
(٣) لا إغلال: لا خيانة.

يا «أبا جندل!»، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب. وراح «عمر» يدني قائم سيفه من «أبي جَنْدَل». يقول «عمر»: رجوتُ أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضَنَّ الرجل بأبيه.

وشهد على كتاب الصلح رجال من المسلمين والمشركين، منهم «أبو بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» و«عبد الرحمٰن بن عوف» و«سعد بن أبي وقاص» و«محمود بن مسلمة»، و«علي بن أبي طالب» وهو كاتب الصحيفة، و«عبد الله بن سهيل بن عمرو» و«مِكرزُ بن حفص بن الأخيف» وكان مشركاً آنئذٍ.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من قضيته، قال لأصحابه: (قوموا فانحروا، ثم احلقوا)، قال: فوالله! ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على «أم سلمة» رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت له: «أم سلمة» يا نبي الله! أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام، فخرج، فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى فعل ذلك، نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا.

وكان الذي حلق رسول الله ﷺ يومئذٍ «خِرَاشُ بن أمية بن الفضل الخزاعي». وفي حديث مجاهد، عن ابن عياش، قال: حلق رجالٌ يوم الحديبية، وقصَّر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: (يرحم الله المحلقين)، قالوا: والمقصِّرين، يا رسول الله! قال: (يرحم الله المحلقين)، قالوا: والمقصرين يا رسول الله! قال: (يرحم الله المحلقين)، قالوا: يا رسول الله والمقصرين! قال: (والمقصرين). قالوا: يا رسول الله! فلم ظاهرت[1] الترحُّمَ للمحلقين دون المقصرين؟ قال: (لأنهم لم يشُكُّوا).

(١) ظاهرت الترحم: أي: قويته بتكريرك إياه.

وفي حديث لمجاهد عن ابن عباس، قال: أهدى رسول الله ﷺ عام الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل، في رأسه بُرَةٌ[١] من فضة، ليغيظ المشركين بذلك. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، جاءه «أبو بصير، عتبة بن أُسَيْد بن جارية»، وهو من قريش، مسلماً، فكتب فيه «أزهر بن عبد عوف» و«الأخنس بن شَريق بن عمرو بن وَهْب الثقفي» إلى رسول الله ﷺ، وحمل رجل من بني عامر بن لؤي مولى لهما كتابهما إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا بصير! إنا من أعطينا هؤلاء القوم ماقد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً).

فخرج «أبو بصير» مع طالبَيْه، حتى إذا كانوا بذي الحُلَيْفَة، جلسوا إلى جدار فقال «أبو بصير»: أصارمٌ سيفك هذا؟ يا أخا بني عامر! قال: نعم، قال: أنظر إليه؟ قال: إن شئت! فاستلَّه «أبو بصير»، ثم علاه به حتى قتله، وانطلق المولى يعدو حتى أتى رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد، فلما رآه رسول الله ﷺ طالعاً، قال: (إن هذا رجل قد رأى فَزَعاً) فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ: (ويلك! ما لك؟) قال: قتل صاحبكم صاحبي، فما برح أن طلع «أبو بصير» متوشحاً السيف، حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! وفت ذِمَّتُك، وأُدِّيَ عنك. أسلمتني ورددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: (ويلُ امِّه مِسْعَرُ حرب! لو كان معه رجال!) فلما سمع بذلك عرف أنه سيرده إليهم.

فخرج «أبو بصير» حتى نزل بالعيص من ناحية ذي المَرْوَة على ساحل البحر بطريق قريش، الذي كانوا يأخذون إلى الشام، ولمَّا بلغ قول رسول الله ﷺ لأبي بصير: (ويلُ امه مِسْعَرُ حَرْب! لو كان معه رجال!) من احْتُبِسَ بمكة من المسلمين، خرجوا إلى «أبي بصير» بالعيص، وانفلت «أبو

(١) البُرَة: حلقة تجعل في أنف البعير ليذلَّ ويرتاض، فإن كانت من خشب فهي خِشاس، وإن كانت من شعر فهي خِزَامة.

جندل بن سهيل بن عمرو» ولحق بأبي بصير، حتى اجتمع إليه ما يقرب من سبعين رجلاً، فكانوا يعترضون عير قريش حتى ضيَّقوا عليها، ولما ثقل عليها ما خسرته من القتلى والأموال، أرسلت قريش إلى النبي ﷺ يناشدونه بالله والرحم لمَّا أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فآواهم رسول الله ﷺ، فقدموا عليه المدينة.

ولما بلغ «سهيل بن عمرو» قتلُ «أبي بصير» صاحبَهم العامريَّ أسند ظهره إلى الكعبة، وقال: لا أؤخر ظهري عن الكعبة حتى يُودُوا هذا الرجل، فقال «أبو سفيان بن حرب»: والله! إن هذا لهو السَّفَهُ! والله! لا يُودى، ثلاثاً.

وكان رسول الله ﷺ أحرص الناس على الوفاء بالعهد، وأبعدهم عن نقضه، والغدر به، لذلك ردَّ على قريش من جاءه منها مسلماً بعد إبرامه ميثاق الحديبية، من الرجال حتى فَرَّج الله عنهم وجعل لهم مخرجاً، ولكن أي موقف اتخذه رسول الله ﷺ مع النساء اللواتي هاجرن إليه مسلماتٍ؟

كانت «أم كلثوم بن عقبة بن أبي معيط» أول المُؤمنات المهاجرات إلى رسول الله ﷺ، فقد أسلمت سراً، وكتمت إسلامها عن أهلها، وبعد أن استقر رسول الله ﷺ في المدينة، أزمعت الهجرة إليه، لتعبد الله في أمان، ولمَّا علم بذلك أخواها «عُمارة» و«الوليد» ابنا عقبة، خرجا في إثرها، حتى قدما على رسول الله ﷺ يسألانه ردها بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية، الذي يقضي بردِّ من أتاه مسلماً بغير إذن وليه، فلما سمعت «أم كلثوم» بمقدم أخويها فزعت إلى رسول الله ﷺ وقالت له: يا رسول الله! إنما أنا امرأة، وحال النساء إلى الضعف، فأخشى أن يفتنوني في ديني، ولا صبر لي، وقال أخواها: يا محمد! لا بد من الوفاء بما عاهدتنا عليه، فرد عليهما النبي ﷺ: أن الشرط كان في الرجال لا في النساء، وسُرَّت «أم كلثوم» بقول رسول الله ﷺ أيَّما سرور! وغمرتها فرحة عارمة، ونزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ

وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وقد أخرج الترمذي في تفسير سورة الممتحنة، [عن الأغرِّ بن الصبَّاح، عن خليفة بن حصين، عن أبي نصر، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ قال: كانت المرأة إذا جاءت النبي ﷺ لتسلم حلَّفها بالله: «ما خرجتُ من بغض زوجي، ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله] رقم (٣٢٣٠)، فدعا رسول الله ﷺ «أم كلثوم بنت عقبة» إلى الامتحان، وكان «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، هو الذي يمتحن النساء، فحلَّفَها بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله ﷺ ـ.

فلما حلفت على ذلك، قال رسول الله ﷺ لأخويها «الوليد» و«عمارة»: (قد نقض الله العهد في النساء بما علمتماه، فانصرفا).

فخرج الرجلان من عند رسول الله ﷺ مخذولين مقبوحين، وما كان الله ليضيِّع من آمن به، وصدَّق رسوله ﷺ ولا يسلمه، ولا يخذله، وهو ولي المؤمنين.

وكان ابن أبي هنيدة[1]، صاحب «الوليد بن عبد الملك» قد كتب إلى «عروة بن الزبير» يسأله عن قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فكتب إليه «عروة بن الزبير» يقول: [إن رسول الله ﷺ كان صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاء بغير إذن وليه، فلما هاجر النساء إلى رسول الله ﷺ وإلى الإسلام، أبى الله أن يُرْدَدْن إلى المشركين إذا هن امْتُحِنَّ بمحنة الإسلام، فعرفوا أنهن إنما

(١) سيرة ابن هشام: (٣/٣٥٥).

جئن رغبة في الإسلام، وأمر برد صُدَقاتِهِنَّ إليهم إن احتبسن عنهم، إن هم رَدُّوا على المسلمين صَداق من حُبِسوا عنهم من نسائهم، ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم، فأمسك رسول الله ﷺ النساء ورَدَّ الرجال، وسأل الذي أمره الله به أن يسأل من صُدُقات نساء من حُبِسوا منهن، وأن يردُّوا عليهم مثل الذي يردُّون عليهم، إن هم فعلوا، ولولا الذي حكم الله به من هذا الحكم، لردَّ رسول الله ﷺ النساء كما ردَّ الرجال، ولولا الهدنة والعهد الذي كان بينه وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء، ولم يَرْدُدْ لهن صداقاً، وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد].

وسأل ابنُ إسحاق[1] الزهريَّ عن آية المهاجرات وقول الله ﷻ فيها: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الممتحنة: ١١]، فقال: يقول: إن فات أحداً منكم أهلُه إلى الكفار، ولم تأتكم امرأة تأخذون بها مثل الذي يأخذون منكم، فعوِّضوهم من فيءٍ إن أصبتموه، فلما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ إلى قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، كان ممن طلَّق «عمر بن الخطاب» طلَّق امرأته «قُرَيْبَة بنت أبي أمية بن المغيرة» فتزوجها بعده «معاوية بن أبي سفيان» وهما على شركهما بمكة، و«أم كلثوم بنت عمرو[2] بن جَرْول الخُزَاعية»، أم عبيد الله بن عمر، فتزوجها «أبو جهم بن حذافة بن غانم» رجل من قومها، وهما على شركهما بمكة.

وذكر ابن هشام: حدثنا أبو عبيدة: أن بعض من كان مع رسول الله ﷺ قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يا رسول الله! إنك تدخل مكة آمناً؟ قال: (بلى، أفقلت لكم: من عامي هذا؟) قالوا: لا، قال: (فهو كما قال لي جبريل عليه السلام).

(١) ابن هشام (٣/٣٥٦).

(٢) عند ابن هشام: أم كلثوم بنت جرول، وما أثبته من الطبري (٢/٦٤٠).